طلائع الثنائية في القديم

ان سكت غيري فأنا غير ساكت ، نصراً للغة العربية ، ونشداً للضالة العلمية . واذ كنت وما أزال مجاهراً بأني على أتم الاستعداد لمبادلة الأفكار في شأن النظريات اللغوية قديمها وحديثها ، فلم أتمالك من المبادرة الى الجواب على كلمة الأستاذ الشيخ المغربي [1] . وبما انه هو وغيره من المحافظين ينادون بالاستناد الى مذاهب الأقدمين ، فهاأنا ذا ناقل طوائف من أقوال هؤلاء الأئمة ، قصد تمحيصها . وكنت في العام الماضي قد أقمت ستة أشهر في القاهرة تمكنت في غضونها من الوقوف ، في دار الكتب المصرية ، حيث كنت أشتغل يومياً ، على قديم الأسفار اللغوية ، التي لم تزل جملة منها مخطوطة . وقد وقعت في غير واحد من هذه الأمهات على نصوص مهمة ثمينة ، تنم على ميل هؤلاء الأقدمين الى افتراض الثنائية قبل الثلاثية .

جاء في معجم « التهذيب » للأزهري نقلاً عن الخليل بن احمد ، قال (في الصفحات الأولى من مخطوطة دار الكتب المصرية) : « كلام العرب مبني على أربعة أصناف : على الثنائي ، والثلاثي ، والرباعي ، والخماسي . فأما الثنائي فما كان على حرفين . نحو : قدْ ، بلْ ، لمْ ، هلْ ، ومثلها من الأدوات . والثلاثي ، نحو قولك : ضرب ، خرج ، مبني على ثلاثة أحرف . والرباعي ، نحو قولك : دحرج ، هملج ، قرطس . مبني على أربعة أحرف . والخماسي ، نحو قولك : اسحنك ، اقشعر ، اسحنفر ، مبني على خمسة احرف .. »

(١) تراجع هذه المجلة . مجلد ٢٧ ، جزء ١ ، ص ١٢٢ ي .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ثم قال : « فاذا صيّرت الثنائي مثل « قَدْ ، وهَلْ ، ولَوْ » اسماً ، أدخلت عليها التشديد ، فقلت : هذه « لوٌّ » مكتوبة . هذه « قَدٌّ » حسنة الكتبة . وأنشد :

ليت شعري وأين مني ليت ان « لَيْتاً » وان « لَوًّا » عناه

فشدّد « لَوًّا » حين جعله اسماً (١) .

ثم قال : « وأما الحكاية المضاعفة فانها بمنزلة الصلصلة والزلزلة وما أشبهها . فيتوهمون في حسّ الحركة ما يتوهمون في جرس الصوت . يضاعفون لتستمر الحكاية على وجه التصريف .

والمضاعف من البناء في الحكايات وغيرها ما كان حرفا عجزه مثل حرفي صدره . وذلك بناء تستحسنه العرب وتستلذه ... « وينسب الى الثنائي ، لأنه يضاعفه » . ألا ترى ان الحاكي يحكي صلصلة اللجام ، فيقول : صلصل اللجام . فيقال : « صَلْ » يخفف . فان شاء اكتفى بها مرةً . وان شاء أعادها مرتين ، أو اكثر من ذلك . قال « صَلْ ، صَلْ ، صَلْ » فيتكلف من ذلك ما بدا له » . ثم قال : « والعرب تشتق في كثير من كلامها أبنية المضاعف من بناء « الثنائي المثقّل » بحرفي التضعيف . ألا ترى أنهم قالوا « صَلّ اللجام » . فان حكيت ذلك قلت « صَلَّ » تمدّ اللام وتثقلها . وقد خففتها في الصلصلة . وهما جميعاً صوت اللجام . فالثقيل « مدٌّ » ، والتضعيف ترجيع وتخفيف في اعادة . لأنه على حرفين ، فلا ينقاد للتصريف حتى يضاعف أو يثقل . نحو قولك « صرّ الجندب صريراً ، أو صرصر الأخطب صرصرة » . كأنهم توهموا في صوت الجندب مداً ؛ وتوهموا في صوت الأخطب ترجيعاً » . وجاء في

(١) وكذا اذا جعلت « أو ، وكم ، ومَهْ » اسماءً ، قلت : « الأوّ والكمّ ، والمَمّ » . وقال بعض العرب : « لا تقولن له : « أفّ وتفّ » يجعله كالاسم .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

المزهر نقلاً عن مختصر كتاب العين للزبيدي : « وعدة الثنائي الخفيف ، والضربين من المضاعف ، على نحو ما ألحقناه في الكتاب (التاج ١/٧) .

أما ابن فارس ، صاحب معجم مقاييس اللغة [١] ، فيقسم الأصول الى ثلاثة أقسام : الأول : الثنائي ، في المضاعف ، والمطابق ، أي الثنائي المكرر . الثاني : الثلاثي . الثالث : الذي جاء على أكثر من ثلاثة أحرف ، أي الرباعي والخماسي . وهذا الصنف الأخير لا يعتبره المؤلف أصليًا مجرداً . فيوعه ثلاثة أنواع . الأول : ثلاثي مزيد فيه حرف . فيكون من قبيل الملحق بالرباعي . نحو : صلفع رأسه . والفاء فيه زائدة . وهو من الصلع . (مقاييس ٣/٣٥٠) الثاني : رباعي منحوت من ثلاثيين . نحو : صلقم . وهو الشديد العض . وهي منحوتة من كلمتين . من صلق ولقم . (مقا ٣/٣٥٠) الثالث : ما وضع وضعاً ، وليس قياسه ظاهراً ، ولا يردّ الى ثلاثي . مثلاً : السلقع : المكان الحزن . والسلفع : المرأة الصخابة . (مقا ٣/١٦٠) .

أما في شأن الذي يسميه ، تارةً « ثنائيًا » وتارةً « مضاعفًا » [٢] فضلاً عن التسمية ، تراه يذكر ، في رأس المادة ، الرسّ الثنائي ، أي حرفين فقط ، كما انه عند بسطه اشتقاقها ، لا يسمّي سوى حرفين ليس الا . دونك مثلاً هذا الوارد بحذافيره : « زع » ـ الزاء والعين أصل يدل على اهتزاز وحركة » ـ « رف » ـ الراء والفاء أصل يدل على خفة في كل شيء » (مقا ٣/٤ ـ ٥) .

---

(١) معجم مقاييس اللغة ، لأبي الحسين احمد بن فارس بن زكريا . نشر منه بالطبع حتى اليوم خمسة أجزاء ، وقريباً يلحقها السادس والأخير الحاوي مختلف الفهارس . بتحقيق عبد السلام محمد هارون : الأستاذ المساعد بكلية العلوم بجامعة فؤاد الأول . القاهرة ١٣٧٠ هـ .

(٢) يراجع مقاييس اللغة ٢/٣٧٢ باب الراء وما معها في « الثنائي » وللمطابق ٢/٣٤٣ باب الدال وما معها في « الثنائي » وللمطابق ٥/١٢١ . باب الكاف وما بعدها في « الثنائي » وللمطابق ٣/٣ . باب ما جاء من كلام العرب أوله زاء في المضاعف وللمطابق ٣/١٦٥ في المضاعف والمطابق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فاذاً في شأن «زعْ» أو زَعْ ـ عَ» و «رفْ» أو «رَفْ ـ فَ» (وكذا القول في «لَبْ» أو «لَبْ ـ بَ» الوارد في كلمة الشيخ المغربي)، يجدر بنا القول ان «الرَسّ» هو الثنائي الخفيف، أي «زَعْ، ورَفْ، ولَبْ». وأما تضعيفه أو تشديده، فهو توسّع في هذا الثنائي الخفيف، أي نقله من «الرَسْ او الأسّ» (La base) الى الأصل (La racinne) حسب المصطلح اللغوي الحديث.

وقد جاء قولنا هذا طبقاً لما ورد أعلاه في المنقول في «تهذيب الأزهري» عن الخليل، وهو أن الثنائي الخفيف «صَلْ» يُمدّ أو يُثقّل، فيصبح «صَلْ»، أي ثنائياً مضاعفاً؛ او يكرّر، فيضحي «صَلْ صَلْ» أو «صلصل». وهو «الثنائي المكرر او المطابق» حسب تعبير ابن فارس.

ولهذا التشديد او التضعيف نظير في السريانية. فان الأسماء الثنائية لها صيغتان، الأولى تقابل «الثنائي الخفيف» في العربية. والثانية تماثل «الثنائي المضاعف» فالأولى مبنية من متحرك فساكن. والثانية يحرّك فيها الساكن فيشدّد ثم تتبعه الف الاطلاق. فيقال: أبْ أو أبّا ـ أخْ أو أخّا ـ إمْ أو إمّا ـ رَبْ أو رَبّا ـ كَفْ أو كفّا». أما الأفعال المدعوة مضاعفة فكلها «ثنائية خفيفة»، او «ثنائية مكررة» مثلاً: «بَلْ، بلبَلْ ـ دَلْ، دلدَلْ ـ زَلْ، زَلزَلْ ـ زَمْ، زَمزَمْ ـ حَرْ، حرْحَرْ ـ حَمْ، حمحَمْ ـ بَقْ، بقبَقْ ـ صَرْ، صرصَرْ ـ صَلْ، صلصَلْ». وكذا الشأن في العبرية. فان ماضي المضاعف «ثنائي» نحو «طَلْ»: ندّى. «سَبْ»: أحاط. «رَبْ»: زاد. والأسماء أيضاً ثنائية. مثلاً «كَنْ»: قاعدة. «رَبْ»: زائد، كثير. «كَسْ»: عرش. «كَفْ»: راحة. وفيها ايضاً الثنائي المكرر، أو المطابق. نحو «شَلْشَلْ»: طهّر. «مَلْمَلْ»: تمّم. «عَرْعَرْ»: غرغر.

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فاذاً يوجد في اللغة «ثنائي خفيف» اي كلمة ذات حرفين محرّك فساكن . مثلاً : «بَهْ ، صَهْ ، مَهْ ، بَخْ ، غَسْ ، ضَعْ ، كَهْ» . ومن هذه الثنائيات الخفيفة ، يشتق «ثنائيات مضاعفة» بصيغة فعلية ، مثل «صَهَّ ، مَهَّ ، بَخَّ ، غَسَّ ، ضَعَّ ، كَهَّ ، مَدَّ ، لَبَّ» . او ثنائيات مكررة او مطابقة . نحو : «بَهْبَهَ ، صَهْصَهَ ، بَخْبَخَ ، مَهْمَهَ ، قَلْقَلَ ، عَدْعَدَ ، مَلْمَلَ ، بَلْبَلَ» .

وما نقوله في المضاعف يمكن قوله في الأجوف ، والناقص والمثال . فانها كلها توسع في الثنائي . اذ ان «قام» اصله «قَمْ» توسّع باطالة حركة حرفه الأول . وعلامة ذلك في الكتابة الألف . و «رمى» اصله «رَمْ» توسع بتحريك حرفه الثاني بفتحة مشبعة علامتها في الكتابة الألف المقصورة . وبعد التوسع باشباع الحركة ، جرى النشوء والتطور باقحام حرف . كما في «عور ، وعوص ، وحول» وبزيادة حرف ايضاً في الآخر ، كما في «رقي وعمي» . وهذا التذييل بحرف اصبح قاعدة مطردة في الحبشية .

هذا وفي آراء الأقدمين من الأئمة بعض التأييد لما قررناه . قال ابن جني في «خصائصه» (مخطوطة دار الكتب المصرية ، ص ٦٣) : «في مراتب الأشياء وتنزيلها تقديراً او حكماً ، لا زماناً ووقتاً . وذلك كقولنا : الأصل في «قام قوَم ، وفي باع بيَع ، وفي شد شدَد» فهذا يوهم ان هذه الألفاظ قد كانت على ما ندعيه ، ثم غُيّرت . وليس الأمر كذلك . وانما نعني انه لو جاء مجيء الصحيح ولم يعلل ، لكان على ما ذكرناه . واما ان يكون قد استعمل وقتاً من الزمان كذلك ، ثم عُدل عنه فيما بعد الى هذا اللفظ ، فلا ...

ومما يدل على ان ما ندعيه أصلاً مرفوض ، وانا لا نعتقد انه كان مستعملاً ، ثم صار مهملاً ، ما توجبه «الصنعة» (أي تنظيم الصرفيين وافتراضاتهم) فيه من تقدير ما لم يمكن النطق به لتعذره . نحو قولنا في شرح الممدود غير المهموز .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

نحو : «سماء وفضاء» ، ان اصله «سماو وفضاي» . فلما وقعت الواو والياء طرفين بعد الف زائدة ، قلبتا الفين . فلما التقى الفان حركت الثانية فانقلبت همزة . فصار الى «سماء وفضاء» . فالتقاء الالفين لا يمكن النطق به !!» .

يعترض المحافظون قائلين : ان الأصول لا تكون الا اسماء وافعالاً ثلاثية . فالجواب هو ان الأسماء والأفعال اصول في مجال التصريف . بيد ان هذه الأصول يسبقها قبل طور التصريف «رساس او إساس ثنائية» . وهي كلمات ذوات معان ، منها اسماء الأفعال ، وحروف المباني ، وحكايات الأصوات ، والفاظ الزجر والدعاء وغير ذلك . فمن هذه الرساس يصاغ افعال واسماء . وهذه الكلمات او الحروف الثنائية منتظمة ، كالأفعال والأسماء المتصرفة ، في عداد اقسام الكلام . ولا فرق بينها وبين تلك من جهة التقدم بالزمان .

دونك ما ورد في الخصائص ايضاً (ص ١٠٦ ي من المخطوطة المصرية) قال ابن جني : «اعلم ان اباعلي كان يذهب الى ان هذه اللغة ، ما سبق منها ثم لحق به ما بعده ، انما وقع كل صدر منها في زمان . وان كان تقدم منها شيء على صاحبه ، فليس من الواجب ان يكون المتقدم على الفعل الاسم ، ولا ان يكون المتقدم على الحرف الفعل . وان كانت رتبة الاسم مقدمة في النفس . ومن جهة القوة والضعف ان يكون الاسم والفعل قبل الحرف . وانما يعني القوم بقولهم : ان الاسم أسبق من الفعل انه أقوى في النفس واسبق في الاعتقاد من الفعل ، لا في الزمان . واما في الزمان ، فيجوز ان يكونوا قدموا ، عند التواضع ، الاسم قبل الفعل . ويجوز ان يكونوا قدموا الفعل ، وكذلك الحرف ، وذلك انهم وزنوا حينئذ أحوالهم وعرفوا مصاير أمورهم ، فعلموا أنهم محتاجون الى العبارات عن المعاني ، وانها لا بد لها من الأسماء والأفعال والحروف . فلا عليهم بأيها بدأوا . لأنهم أوجبوا على أنفسهم ان يأتوا بها جُمَع .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

اذ المعاني لا تستغني عن واحد منهن . هذا مذهب ابي علي ، وبه كان يفتي . . » الى ان قال : « ويمنع من تقدم الأسماء في الزمان ـ وان كانت أسبق رتبةً في الاعتقاد ـ أشياء ، منها : وجودك اسماء مشتقة من الأفعال . نحو : قائم من قام . ومنطلق من انطلق . ألا تراه يصح لصحته ويعتل لاعتلاله . نحو : ضرب ، فهو ضارب ، ونام فهو نائم . « ورتبة المشتق من الشيء أن يكون بعد » . وأيضاً ، فان المصدر مشتق من الجوهر ، كالنبات من النبت ، وكالاحتجار من الحجر . وكلاهما اسم . وأيضاً ؛ فان المضارع يعتل لاعتلال الماضي ، وان كان أكثر الناس على أن المضارع أسبق من الماضي . وأيضاً فان كثيراً من الأفعال مشتق من « الحروف » . نحو قولهم : سألتك حاجة ، « فلا لَيت » لي ، اي قلت لي « لا » . وسألتك حاجة « فلَولَيت » لي ، أي قلت « لولا » واشتقوا أيضاً المصدر ، وهو اسم ، من الحرف . نحو « اللأْلأَة والولاة » . وكذلك قالوا « سوّفت » الرجل ، أي قلت له « سوف » .

نضيف نحن الى ذلك ما أوردناه أعلاه من ان الأسماء تصاغ من الحروف ، نحو : « لَوْ ، هَلْ ، كَمْ ، مَعْ » يشتق منها بطريق التشديد ، الأسماء الآتية وهي : « اللوُّ ، الهلُّ ، الكمُّ ، المَعُّ » . كما انه ، من اسماء الأفعال ، ومن حكايات الأصوات ، والفاظ الزجر ، يشتق أفعال بطريق النقل من الثنائي الخفيف الى الثنائي المضاعف ، والثنائي المكرر او المطابق ، اي الى الثلاثي ، والرباعي ، الداخلين في نظام التصريف [1] .

وهنا تتبادر الى الفكر عفواً هذه الملاحظة وهي : ان الأستاذ المغربي يصوب رأيي وعملي حين « انكاري كل الانكار على غبطة البطريرك يرصوم .

(١) من احب الاستزادة في هذا الشأن فله مراجعة تآليفنا الثلاثة ، ولا سيما ما ورد في الأخير منها وهو « معجميات عربية ـ سامية » من صفحة ٩٦ الى ١٠٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

صاحب «الألفاظ السريانية في المعاجم العربية» لجعله ألفاظاً عربية صحيحة من أصل سرياني ، بيد أنه يلوح لي في كلام الأستاذ شيء من التناقض ، اذ انه ، من الجهة الواحدة ، يجند متصوباً نتائج تقصياتي ، ومن الجهة الأخرى ، يستنكر الوسيلة التي أستخدمها لاستخراج هذه النتائج ، برفضه قبول صوابية «نظرية الثنائية» . والحال اني ، بالثنائية ، وبالثنائية وحدها ـ توصلت الى اثبات الأصلية العربية لأغلب الكلمات المسفورة ، وانكار سريانيتها . انه تتحقق حضرته ذلك ، لو كلف خاطره مراجعاً بدقة وانعام نظر ، في تأليفي الأخير «معجميات» الذي وصفه ونقده ، الأبواب المبحوث فيها تأصيل المفردات التالية «تلميذ ، ختن ، أجم ، بعير ، عرش ، صنم ، لبيك ، نهر الخ» . فهذه وغيرها ، إن حاول المؤصل اثبات عربيتها ، حسب مبادئ الثلاثية ، لذهب سعيه أدراج الرياح . فاذاً ان صوابية «الثنائية» ، فضلاً عن البراهين التي تعززها ، ترى متجلية بما ينجم عنها من النتائج الصريحة والفوائد الجمة . مهما يكن من أمر ، فاني شاكر الأستاذ المغربي اللغوي البارع ، على حسن ظنه بهذا العاجز الذي يعتد نفسه أصغر خدمة اللغة العربية الجليلة .

أما المجمع اللغوي المصري الموقر الذي تفضل حضرة صاحب المعالي رئيسه العلامة لطفي السيد باشا فدعاني لإلقاء كلمة على مسامع حضرات أعضائه الأجلاء ، في الصيف الغابر ، فالأمل ان مؤتمره السنوي قد عقد في أوانه ، وأن الأستاذ المغربي تمكن ، حين حضوره جلساته ، من استطلاع رأي هؤلاء الأئمة الأفاضل في ما بسطته امامهم من النظريات الثنائية والألسنية السامية .

على أني من جهتي قد حفظت اطيب الذكريات من رحلتي العلمية الى مصر المحروسة . وقد افدت كثيراً من مطالعاتي اليومية في دار الكتب المصرية العامرة . وقد توفرت لي أنجع الوسائل بفضل القائمين بالادارة والعمل فيها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بيد أنه فوق هذا كله وبنوع خاص ، قد انطبع في نفسي أبلغ الأثر وأجمله لما تبيّن نحوي من العطف واللطف من قبل معالي رئيس المجمع العلامة ، ومن امين سره الفهّامة ، صاحب السعادة منصور فهمي باشا ، ومن لفيف اعضائه المصريين الكرام . وهل يستغرب اللطف في معدنه ، والكرم في منبعه ؟

وفقنا الله جميعًا لمسايرة قافلة البشرية في طريق الرقي ، رقي العلوم المصرية ، ولا سيما العلوم اللغوية ؛ وللاستمرار ، أينما وجدنا ، على التآلف والتآخي ، والتكاتف والتآزر ، في خدمة اللغة الكريمة ، والأوطان العربية العزيزة . ولا بأس في تباين آرائنا ، وتضارب نظرياتنا . فان « للعلم حريته ، وللرأي استقلاله » ، حسب قول الأستاذ المغربي الصائب .

وليسمح لي حضرة الزميل الصديق أن اجعل ختام هذه الكلمة تمثلي بقول القديس أوغسطينس ، ولله دره من قائل : « ليكن شعارنا في المؤكدات الوحدة ، وفي المبهمات الحرية ، وفي كنهن الألفة والمودة » .

(القدس) الأب مرمرجي الدومنكي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net